الفصل الخامس

الشعور الديني للمراهق

ا ـ أهمية الدين للمراهق

يحتاج المراهق إلى دين يعطيه الإيمان بالحياة. . وينطلق بالشعور بالطمأنينة ويخلصه من الإحساس بالتوتر والقلق الذى يتابه فى هذه المرحلة الهامة من حياته.

والمراهق يبحث دائما عن فلسفة ثابتة للحياة، ويبحث عن وضع مستقر له فى هذا الكون، وأثناء هذا البحث يتذبذب فى معتقداته الدينية، ويشك فيها أحيانا، حتى يستقر أخيرا إلى العقيدة التى تشبع حاجاته إلى فلسفة ثابتة فى الحياة.

ولتأدية العبادات فائدتان:

أولاهما: أنها توفر للإنسان وقتا هادئا ليتأمل نفسه بالنسبة للكون الكبير، وبالنسبة للخالق . . كما أنها تخفف الشعور بالذنب، وتساعد على توفير الطمأنينة والشعور الشخصى بأن الله بجانبه.

ثانيتهما: تعطى الإنسان شعورا بأنه ينتمى إلى جماعة كبيرة تشترك فى التفكير والعقيدة وتأدية العبادات بنفس الطريقة.

وهذا الشعور بالانتماء إلى الجماعة ينمى الشعور بالأمن والاستقرار.

لذلك: فعلى المراهق الاحتفاظ بروح الدين وأهدافه الهامة، والتمسك بالقيم الأخلاقية والسلوك السليم الذى يهدف لصالح المجموع، وحماية حقوق الأفراد من العدوان بعضهم على بعض.

وليس من المستحب أن يكون الاتجاه الدينى ضيق الأفق بل يجب أن تخفف من أهمية التمسك بحرفية الدين.

٢ ـ أسس الدين فى المراهقة:

توضع أسس المعتقدات والاتجاهات الدينية فى الطفولة.

فيوضح: معنى الدين بالنسبة للطفل، وكيف يكتسب معتقداته الدينية.

نوع التلقين الدينى الذى يعطاه: كلها من العوامل التى تعزز معتقداته واتجاهاته الدينية فيما بعد.

١ ـ واقعية الأفكار الدينية:

تتسم الأفكار الدينية للطفل بالواقعية: فنظرته إلى الله والملائكة والشيطان تشبه نظرته إلى الناس الذين يعيش معهم. كما أنه تهمه فى نظره كثيرا من صفاتهم ولكن الصورة التى تكون لهم فى خياله يكتنفها الغموض، وينقصها التحديد: فنظرة الطفل إلى الملاك مثلا: أنه شخص له جناحان ويستطيع أن يطير.

وتتوقف أفكار الطفل بصدد الدين إلى حد كبير على المؤثرات البيئية فى المنزل، وخارج المنزل والجمعيات الدينية المختلفة، ومن ثم الاختلاف الكبير فى أفكار الأطفال الدينية مما يؤدى إلى اضطراب المراهق بهذا الصدد عند اكتشافه هذا الاختلاف فيما بعد.

ويتسم اهتمام الطفل بالدين بالفضول الذى يجذبه إلى محاولة معرفة كل جديد وغريب فى حياته اليومية، دون أن يصطبغ هذا الفضول بالرهبة فى أول الأمر.

ولكن هذا الفضول قد يصطبغ بالرهبة إذا كان التعليم الدينى للطفل يتجه نحو هذه الوجهة.

والدين بالنسبة للطفل وسيلة للحصول على بعض الرغبات المادية. فالقيمة الأساسية لمعنى الخير عنده، أنها تمهد له سبيل الكسب المادى (كباره يعطونه، وكذلك الله).

كما أن اتجاه الطفل من الدين اتجاه موضوعى غير شخصى. فالشعور الدينى عنده لا ينبت من داخل نفسه، ولكنه أسلوب فى التفكير والسلوك الشبيه بالنمطى الذى تعلمه دون أن يكون له إلا دلالة قليلة بالنسبة له... وهذا بعكس المراهق الذى يصبح اهتمامه بالدين اهتماما ذاتيا.

صلاة الأطفال:

الصلاة بالنسبة للطفل وسيلة إلى غاية.

فهو حين يصلى، يطلب تحقيق أمر يرغبه ولم يستطع الحصول عليه، لأن نظرته إلى الله لا تختلف كثيرا عن نظرته إلى أبيه.

٢ـ اليقظه الدينية فى المراهقة:

تعنى اليقظة الدينية: اهتماما متزايدا بالدين يؤدى إلى إعادة تكوين المعتقدات والاتجاهات الدينية.

والأمر الغالب أن هذه ترجع إلى النمو الذهنى الذى يحدث فى المراهقة إذ حين يصل هذا النمو إلى المدى الذى يسمح بتكوين الأفكار المجردة، وفهم معناها وحين يشعر الفرد بالحاجة إلى الطمأنينة، يبدأ الاهتمام بالدين فى الزيادة ويأخذ طابعا شخصيا.

وليس من السهل معرفة متى تبدأ هذه اليقظة بوجه التحديد؛ لأن المراهق يتجنب التحدث عن حياته الروحية، ولكن هو مع النمو المطرد يربط بين اليقظة الدينية والنمو العقلى.

ويُعتبر سن ١٢سنة (العمر العقلى) يمثل متوسط السن التى تبدأ فيها اليقظة الدينية.

وينتج عن هذا أن ناقصى العقل لا يستطيعون اختبار القلق الدينى.

وأنه كلما زاد الذكاء، بكرت فى الظهور، واشتد القلق المصاحب لها.

ـ العوامل التى تؤثر على اليقظة الدينية:

١ ـ **الذكاء:** لأنه يدفع المراهق إلى مراجعة المعتقدات الدينية التى كان يسلم بها تسليما مطلقا فى الطفولة.

٢ ـ **المعرفة:** وخاصة ما ارتبط منها بالعلوم الطبيعية والبيولوجية، وتدفع المراهق إلى النظر فى معتقداته القديمة على ضوء المعرفة الجديدة.

٣ ـ **الخبرات الجمالية فى الفن والطبيعة:** وخاصة ما ارتبط بها من تنبيه الشعور بالتخيل وهذا الشعور من الأسس الهامة فى الخبرة الدينية.

٤ ـ **صدمات القدر:** كالمرض الشديد، وموت الأعزاء.. والخسارة المادية.. إلخ كلها تعمل على الاهتمام بالدين.

٥ ـ **البيئة:** كلما اشتدت عناية البيئة التى ينشأ فيها المراهق بالدين كان للفتى المراهق أقرب إلى اليقظة الدينية.

البيئة الريفية أقرب من البيئة الحضارية.

ـ طرق حدوث اليقظة الدينية:

يمكن أن تحدث اليقظة الدينية بإحدى طريقتين:

١ـ **تدريجيا:** أى بهدوء وببطء خلال فترة طويلة، يراجع فيها المراهق معتقداته الأولى على مهل، ويعدل فيها بما يتفق مع زيادة معارفه، ونضج عقله وذكائه.

٢ـ **مفاجأة:** وهذه الطريقة تتميز بالعنف والشدة، وانفعالات الخوف، ومشاعر الخطيئة والخجل تحدث اليقظة الدينية فجأة، وتصحبها مراجعة مفاجئة للمعتقدات الدينية الطفلية، وتنتج غالبا من التعاليم المتزمتة التى تضرب على الخطايا فى حياة الفرد، وتؤدى إلى الضغط والتغلب.

والطريقة الأولى أكثر انتشارا بعكس ما قد يبدو لدى النظر السطحى ولكن الطريقة الثانية تستوقف الانتباه.

وكلتاهما تتوقفان على:

• البيئة: فإن البيئة التى تنبه مشاعر الخطيئة والخجل والتى تعلى سلطان التقوى وتستنكر الإسراف فى أى صورة، ولا تسمح بمناقشة النظريات الدينية التقليدية تساعد على اليقظة الدينية المفاجئة.

• المزاج: فإن المزاج الحاد أو المكتئب يعد صاحبه ليقظة دينية عاصفة.

٣ـ الشكوك الدينية:

يرجع الشك إلى عدم القدرة على الاستدلال، وإلى ارتباطه بالذكاء، فالطفل الذكى قد يبدأ شكه الدينى فى سن ٨ سنوات، ولكن هذا الشك يتميز بالموضوعية، وبأنه غير شخصى؛ ولذا فإنه لا يسبب أى صراع انفعالى للطفل (مثلا: خلق حواء من ضلع آدم... المرأة فقط هى التى تنسل.. هل من الإنصاف معاقبة آدم وحواء على أكل التفاحة من الشجرة، والله هو الذى رتب ذلك).

وبانتقال الطفل إلى المراهقة، يزداد تساؤله عن صحة معتقداته الدينية الأولى أو يزداد شكه، ويبدأ ينظر إلى ما يسمعه بهذا الصدد فى البيت أو المدرسة أو الجمعية الدينية التى ينتمى إليها نظرة الفاحص الناقد.

ويتوقف قدر الشك الدينى لدى المراهق على ذكائه ومعلوماته وطريقة مرائه الدينى الأول.

والشك الدينى ليس خبرة عامة فى المراهقة، ولكنه يتوقف على ذكاء المراهق، وعلى نوع تلقينه الدينى فى الطفولة، وعلى نوع التعليم الذى يُعطاه فى المدرسة، لا يقتصر الشك على الناحية الدينية للمراهق:

بل يتعداها إلى كل معتقداته وخبراته:

فى الأخلاق، والصداقة، ومكانه فى الأسرة والمجتمع.. إلخ.

غير أن المراهق يدرك أن هناك من القيم والمعتقدات ما لا ينبغى أن يكون محل التساؤلات: كقداسة الزواج، والعفة الجنسية، والسلطة المطلقة للوالد على الطفل. والخطأ فى قول الكذب تحت أى شرط فيركز اهتمامه عليها.

ويعتقد كثير من الكبار أن الشك الدينى فى المراهقة دليل على فشل المران المبكر للطفل بهذا الصدد؛ لأن المران الصحيح. فى رأيهم ينبغى أن يقنع عقل الطفل دون الآراء المتصارعة حين يكبر.

ولكن:

الواقع أن الشك فى ذاته لا ينبغى أن يكون مصدر قلق للوالدين:

فمن علامات الصحة النفسية فى المراهقة الشك فى كل شىء. فإن الشك دليل القدرة على التفكير.. ولكنه فوق هذا أيضا دليل الرغبة فى إعادة النظر فى القيم الطفلية، ومحاولة اتخاذ موقف ناجح فى الحياة.

أما غياب الشك بصدد الناحية الدينية أو غيرها.

فإنه دليل على قلة الذكاء للمراهق. فالشك إذن علامة طيبة لأنه دليل على النمو. ومحاولة تحقيق التكيفات العقلية اللازمة للنضج.

ولكن ما يدعو إلى الاهتمام حقا، فهو الحكم الخاطف بصدده على الدين، ويطبقه على جميع المعتقدات الدينية لعجزه عن قبول بعض التعاليم الدينية.

إذا استمر سنوات قبل أن يستطيع الفرد النظر إلى الدين بعين بعيدة عن التحيز والهوى. وقد يكون هذا بداية «إلحاد» يلازمه طول العمر.

أما سن الشك فيبدأ مع اليقظة الدينية (أى سن ١٢ سنة) ولكنه يصل إلى أقصاه فى سن ١٧ سنة. ثم يكون قد هدأ إلى حد كبير فى سن ٢٠ سنة.

مظاهر الشك الدينى:

استدلت الدراسات فى هذا الجانب فى دراسة يوميات المراهقين على أن الشك الدينى يبدأ أول الأمر فى صورة الشك فى المظاهر الدينية (هذه هى صورة الشك فى ٤٢٪ من المراهقين دون سن ١٦ سنة).

ولكنه يأخذ بعد ذلك صورة الشك فى المحتويات الدينية (صورة الشك، ٩٦٪ أكثر من سن ١٦ سنة).

دور المراهق من هذه الشكوك نحو نفسه:

عليه أن يراجع ويسأل ويستفسر ممن هم أكثر منه دراية بالنواحى الدينية كى يصل إلى المعرفة الصحيحة التى تبعده عن الشكوك والقلق.

وعليه أن يحضر الندوات المختلفة التى تعقد للمناقشة، والتى يديرها الأطباء النفسيين مع المتخصصين من الجوانب الدينية. فإن انسجامهم فى آرائهم مع اختلاف مجالاتهم تعطى المراهق استعدادا روحيا وفكريا صحيحا.

٤ـ النفعية:

كذلك يتسم الشعور الدينى للمراهق بالنفعية، أى أنه يقبل على الدين لأنه يجد فيه حلا لمشكلاته، وراحة لنفسيته المعذبة، وفائدة فى حياته الاجتماعية والدراسيه.

ومما يثبت ويؤكد هذا الإتجاه، التربية الوالديه التى تشجعه على الصلاة كى ينجح ويتفوق فى دراسته.. وحياته مستقبلا.

مسئولية المراهق نحو نفسه فى هذه الناحية:

عليه أن يسمو بالنفعية المادية والاجتماعية إلى الفائدة الروحية، وأنه لا تضارب بين الإثنين. وعليه أن يكون مستعدا للتضحية بكل شىء من أجل الحق.

على المراهق أن يدرب نفسه على حياة البذل تدريجيا، واضعا الشعار الذى يقول: «العطاء أفضل من الأخذ».

على المراهق أن يحاول معالجة مشكلاته السلبية واللامبالاة، وعدم الالتزام على المستوى الفردى حتى تصبح حياته إيجابية، حبا وعطاء، لا نقدا وتهكما ومنفعة.

على المراهق أن يزود نفسه بمعرفة دينية واسعة ومتعمقة، وبنماذج من سير الأبطال الذين عاشوا فى ظروف مختلفة، وتقدموا فى حياة النعمة، وغلبوا الواقع بالإيمان الذى فيهم.

٥ـ الحرفية:

ولا يقصد بها تصور الدين على أنه الأوامر والنواهى، والحرام والحلال، وممارسة الطقوس الدينية بطريقة شكلية، ودون بذل جهد روحى لتكون لهذه الممارسات فعلها فى الحياة الوجدانية والفكرية.

فليس لدى المراهق مانع من أن يصلى بانتظام، وليلتزم لفروض الصلاة جميعها ولكنه يصطدم عندما يطالبه الدين بالبذل والعطاء، ومحبة الآخرين، وضبط الفكر، وطهارة الداخل.

ولما كان الدافع الجنسى هو أقوى الدوافع فى هذه المرحلة؛ لذا تمثل حالة الفتى الجنسية أهمية كبيرة فى تدينه.

فهو إن سقط يلجأ إلى الممارسات الدينية ليتخلص من تأنيب الضمير، وهذا الالتزام يلزم تجاوزه وتعديله.

لذلك فعلى المراهق:

أن يختار حياة التوبة المتجددة، وعدم اليأس من كثرة السقوط لأن الله قادر أن يقيمه إذا توحدت إرادته معه.

عليه أن يعالج فهم الحياة الروحية من خلال العقل الباطن والعمل السرى أكثر من تركيزه على الأمور الخارجية.

عليه أن يشعر أن السعادة الحقيقية هى:

عبادة الله، والعمل بأوامره، وكراهية المعاصى واحتقارها لأنها تسبب الشقاء، كما أنها تفصله عن علاقته بالله.

عليه أن يتخذ الله مخلّصا، ومرشدا، والالتجاء إليه فى ساعات الضعف والسقوط، كما فى ساعات الفرح والانتصار.

٣ـ الشعور الدينى.. وأمور على الفتى المراهق مراعاتها:

١ ـ يجب ألا يستعمل المراهق الدين لضرب التفكير العلمى، وقوقعة فكره فى قالب جامد.

٢ ـ يجب ألا يعزل المراهق نفسه عن الروح العصرية، وعن التطور. بل يجب عليه أن يواكب روح العصر وتطوراته بنظرة فاحصة تميز بين الضار والنافع، وبين الخير والشر. والخروج بمحصلة تفاعلية بين الروح الدينية والروح العصرية.

٣ ـ يجب أن يحرص المراهق على ألا يصير الدين أداة للروح الرجعية.

وذلك بتقبل صورا سلوكية كانت صالحة، فى عصر قديم إلى العصر الحديث.

بل عليه أن لا يعمل على تطبيق ما كان سائدا بأحد المجتمعات القديمة فى صورة طبق الأصل بغير مراعاة لروح العصر أو متطلباته، أو حتى مزاجه.

٤ ـ يجب على المراهق أن يكون متزنا وناضجا عقليا، وألا يستخدم الدين كأداة لتربية روح التعصب لديه، بل يجب استخدامه فى التمسك بالمحبة والتسامح والمساواة بين الجميع والتسابق إلى الخير.

٥ ـ يجب على المراهق أن يتحصن بسلاح الدين، والتمسك بمبادئه، وإحساسه بالقرب من الله، كى يستطيع التغلب على الصراعات الداخلية، والتوتر، والقلق والانحرافات الجنسية، والأخلاقية التى يتعرض لمخاطرها فى هذه المرحلة.

٦ ـ على المراهق اقتناء الكتب الدينية الرئيسية: وتفهمها، ومناقشة ما جاء بها مع المتخصصين فى المجال الدينى.

وأخيرا: فعلى المراهق أن يكون المثل الأعلى فى السلوك الذى يتلاءم مع المبادئ الدينية: المحبة، والأمانة، والوفاء والإخلاص، والتفاؤل والإيمان... الصفات التى تهيئ له حياة هادئة، هانئة، صادقة مع نفسه ومع ربه ومع مجتمعه.